«بومبي»: اليوم الاخر

عن المدينة الرومانية التي محاها البركان

د. وليد أحمد السيد*

■ في صباح يوم 24 آب (أغسطس) من العام 79 للميلاد، أفاقت مدينة بومبي (Pompeii) الرومانية الجميلة، والتي تطل على شواطئ خليج نابلس بإيطاليا القديمة، كالمعتاد على صباح مشمس جميل ليزاول أهلها أعمالهم الاعتيادية في أسواقها وشوارعها وحاراتها ودروبها. كان ذلك اليوم كغيره من أيام السنة التي عاشتها المدينة الوادعة باستثناء تفصيلة صغيرة؛ فقد كانت المدينة على شفا الاندثار التام بين عشية وضحاها، فقد كان أهلها غافلين عما يخبئه القدر لمدينتهم التي كانت تجاور بركاناً نائماً تحت جبل «فيسوفيوس» (Mount Vesuvius) والذي كان على وشك أن يفيق من رقاده العميق الذي راح فيه منذ عقود؛ إفاقة كانت عاتية، وغضبة غضباء زمجرها البركان كان بها من الدمار ما كان كافيا ليغمر المدينة وأهلها تحت مئات الأطنان من الحمم البركانية المزمجرة التي أكلت في طريقها الأخضر واليابس وكل معالم الحياة. فقد صحت المدينة في ذلك اليوم مع خيوط الفجر الأولى وإشراقة الشمس الصيفية ليستغل اهل المدينة ملامح ذلك اليوم قبل اشتداد حرارة الشمس في كبد السماء. وتسللت خيوط الشمس عبر الحدائق والبساتين وأشجار الزيتون وخضرة الأشجار المحملة بالثمار والتي كانت العصافير المتصايحة تتقافز فرحة بين أشجارها. أما حياة الآدميين في تلك المدينة فكانت اعتيادية، فهذا رب الدار دار بسوطه وصوته يعلو مزمجرا على العبيد لتنظيف البيت، وهذا الخباز وزوجته في سوق المدينة وقفا يبيعان الخبز الطازج الذي كانت رائحته التي تسيل لها لعاب المارة وتقرقر معداتهم طربا لألحان رائحته الزكية، وذاك وقف مع صديقه في السوق محادثا، وآخر كان يسير الهوينا متهاديا موليا ظهره لساحة «الفوروم» بوسط المدينة، وفي هذا المنزل أو ذاك تعالى بكاء طفل رضيع بين يدي أمه. مشاهد اعتيادية يومية آدمية أسدل عليها الستار بركان مجاور ثار دون سابق إنذار فمحا معالم الحياة وحل الموت بين عشية وضحاها ولم يتبق من أثر للمدينة سوى تماثيل آدمية متفحمة تحكي آخر لحظات صراع بائسة مع الموت، وقد فغرت الجثث أفواهها ألما، فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزا! وأسدل الستار على مدينة اندثرت تحت طبقة «أفعوانية» لاهبة من الحمم البركانية الغاضبة بلغ سمكها 6 أمتار!

فما هي قصة هذه المدينة؟ وما هي معالم الحضارة التي محتها غضبة مظهر من مظاهر الطبيعة العاتية؟ وما هي الخرافات التي تحيط بها وما جاورها وبخاصة مدينتها الأخت، هيركولانيوم (Herculaneum)، التي راحت معها في غيابات موت مفاجئ؟

بعد هدوء غضبة البركان العاتية، غابت مدينة بومباي وجارتها عن وعي الذاكرة والزمان وطواها النسيان لمدة تزيد عن 1500 عام لاحقة. كل ما تبقى كان مجموعة من المخطوطات والوثائق التاريخية العتيقة التي ترد على ذكرها لماما، بالإضافة الى محاولات متواضعة لتحديد مواقع المدينتين. كان ذلك إلى أن تم العثور عليهما بالمصادفة المحضة! فقد حاول عامل حفر بئر عندما غاص في الأرض لعدة أمتار ليصطدم بالمدرج الرئيسي لمدينة هيركولانيوم. ولم تكن العمارة هي ما جلب الانتباه للمدينة في بادئ الأمر إنما كان الرخام الذي حفل به مبنى المدرج والذي تم نقله منذ العام 1709 إلى 1716 إلى قصر الامير النمساوي (d'Elbeuf) الذي كان يبنيه بالجوار. وبعد اكتمال بناء قصره حيث استخرج الكميات اللازمة من الرخام من الحفرة التي تم توسيعها توقفت أعمال الحفريات لمدة 20 عاما تلت. مدينة بومبي تم اكتشافها بطريق الصدفة المحضة أيضا. ففي القرن السادس عشر كشف مجرى قناة مائية تحت الأرض تنبع من نهر سارنو عن مبان رومانية بها زخارف من المرمر نقش عليها اسم «بومبي». وللوهلة الأولى ظن المعماري الذي تتبع مجرى القناة المائية ويدعى (Fortuna) أنه عثر على قصر الإمبراطور (Pompeius) لكنه تبين لاحقا أنه عثر على المدينة المفقودة بومبي! وقد بقيت المدينتان مدفونتين حتى منتصف القرن الثامن عشر حين أمر حاكم نابلس بايطاليا، والذي أصبح بعدئذ ملك اسبانيا تشارلز الثالث، ببحث منهجي في منطقة خليج نابلس للعثور على المدينتين. وعلى الرغم من أن هذا كان الهدف المعلن إلا أن الهدف الرئيسي كان محاولة البحث عن مقتنيات ثمينة لضمها للقصر الملكي.

وتعود المدينتان في تأسيسهما للقرن السابع قبل الميلاد، حيث تقعان على ساحل خليج مدينة نابلس بإيطاليا بالقرب من بركان متجدد الثوران. وقد تم تأسيس المدينتين من قبل قبيلة إيطالية تدعى الأوسكانيون (Oscans). وفي موقع مدينة هيركولانيوم أنشأ الأوسكانيون قرية بحرية لصيد الأسماك على منطقة مرتفعة بين جدولين يجريان من مرتفعات جبل فيسوفيوس ويصبان في البحر. بينما أنشأت مدينة بومبي على انقاض حمم بركانية قديمة متراكمة. وفي القرن السادس قبل الميلاد ازدهرت تجارة المدينتين مع التجار اليونانيين نظرا لوقوع المدينتين على خطوط التجارة، وبمرور الوقت حلت الحضارة اليونانية محل الثقافة المحلية لقبائل الأوسكان الذين انشأوا المدينتين. ويظهر تأثير الحضارة اليونانية من اسم مدينة هيركولانيوم المشتقة من هيركوليس الذي تدور حوله أساطير وميثولوجيا يونانية. أما أصل كلمة بومبي فيعود لتأثيرات الأوسكان ويعتقد أنه مأخوذ من لغتهم من كلمة (pompe) وتعني «خمسة». ويعتقد أن ذلك يعود للأصول الاجتماعية الخمسة التي حوتها المدينة، أو ربما تعود لأصابع اليد الخمسة بما يعني مد يد الصداقة في التجارة نظرا لموقعها الجغرافي. وتظهر تأثيرات الفنون اليونانية والإتروسكانية في المدينة بوضوح. ويروي المؤرخون نهاية التعايش بين اليونان والإتروسكان في العام 474 قبل الميلاد على اثر معركة حاسمة دمر فيها الأسطول اليوناني آخر سفن الإتروسكانيين.

في عهد اليونان ازدهرت مدينة بومبي كإحدى المدن اليونانية آنذاك بما حوته من منشآت حضارية وكحاضرة ثقافية وتجارية مهمة. فبني معبد أبولو ليطل من تلة عالية على طرقات المدينة. كما بني معبد يوناني آخر في الطرف الجنوبي الشرقي للمدينة في السفوح المطلة على حائط مبني من الصخور البركانية. وتم بناء المدينة بناء على قواعد تخطيط المدن آنذاك للمعماري اليوناني الشهير هيبوداموس وذلك بتحديد المدينة من خلال شبكة متقاطعة من الطرق ومدخلين للمدينة على الطرف الشمالي؛ أحدهما كان يدعى بوابة فيسوفيوس ويسير عبر محور يمتد من جبل فيسوفيوس ويخترق المدينة – أما الثاني فهو بوابة هيركولانيوم فيتبع الساحل من مدينة هيركولانيوم. وهذا التخطيط اليوناني للمدينة بقي حتى يوم اندثارها في العام 79 للميلاد بالرغم من وقوعها بعد ذلك بين أيدي السامنيين (Samnite) والرومان من بعدهم والذين كانت بينهم حروب متعاقبة انتهب بهزيمة الأخيرين من قبل الرومان وسيطرتهم على المدينة في العام 89 قبل الميلاد.

وفي عهد الرومان ازدهرت بومبي كإحدى مدن الإمبراطورية الرومانية في أوج عظمتها ووصل تعداد سكانها لحوالي 15 ألف نسمة. وتميزت الحياة الاجتماعية فيها بالعدالة والمساواة حيث تعايش الغني والفقير دون تمييز أو تباين طبقي أمام القانون رغم وجود طبقة العبيد. وازدهرت المدينة كحاضرة تجارية لدرجة أن أسوار المدينة بمرور الوقت لم يعد لها مبرر فتم البناء عليها وتجاوز الأسوار حيث لم تكن للمدينة مطامع أو منافسات سياسية. وقد أدخلت على مباني المدينة تغييرات كبيرة عكست ذوق الرومان ومتطلبات حياتهم ونمط معيشتهم. وبرزت بها مباني المسرح والأوديون حيث ازدهرت فنونهم المسرحية وتعددت الأماكن العامة لتشمل المدرج المفتوح، كما عاشت لغات الاوسكانيين الأصلية واللاتينية، وتم إنشاء الحمامات العامة التي اشتهرت بها المدن الرومانية. وكذلك ساحة الفوروم والتي كانت بمثابة المركز الحضري والسياسي للمدينة الرومانية واحتل معبد جوبيتر وأبولو طرفي الساحة الشمالي والجنوبي. وتم جلب المياه للمدينة عبر المنشآت الرومانية الشهيرة وهي القناطر التي وصلت بين نهر سارنو وميناء ميسينوم الروماني. وغصت ميادين وحلبات القتال بالأسود والمصارعين – وهم مزيج من المجرمين وأسرى الحروب والذين أطلق عليهم إسم (Gladiators) وهو اسم مشتق من السيف القصير (gladius) الذي كانوا يحملونه لقتل الحيوانات أثناء الصراع الدامي – ومشاهد الدم والقتل التي كانت تتدافع لها أرجل العامة لتحتل مكانا متقدما في مدرجات القتال الخاصة والتي اشتهر بها الرومان.

وفيما يخص المعتقدات فقد كان أهالي مدينة بومبي وثنيي المعتقد إذ حفلت مدينتهم بما لا يقل عن عشرة معابد خصصت لآلهة مختلفة تنوعت ما بين جوبيتر، وجونو ومنيرفا. كذلك زخر معبد المدينة الرئيسي بتماثيل آلهة آخرين مثل باخوس إله الخمر والترف، وفينوس إلهة حسن الحظ والازدهار. وقد اعتقد أهالي مدينة بومبي كما شاع في الحضارة الرومانية بأن مختلف مظاهر الحياة كان يسيرها ويسيطر عليها آلهة كل منهم منوط بمنحى من مناحي الحياة أو أكثر. وكان من أشهر من عبدوا من الآلهة هو (فستا) أو إله النار الأبدية، وعطارد (Mercury) إله نجاح الصفقات التجارية، وأبولو إله الشفاء. أما عبادة فينوس فكان لها ميثولوجيا غامضة وقديمة ترتبط بالصحة والمرض والموت والحياة، رغم أن روايات متقدمة أخرى كانت تربطها بالحب. كما شاعت عبادة إلهة أخرى لها ارتباط بمصر القديمة وهي (إيزيس) وذلك حوالي العام 100 قبل الميلاد، وارتبطت ميثولوجيا عبادتها بمنحها للحياة بعد الموت تبعا لمعتقدات المصريين القدماء. وكان مما ساد في بومبي كمدينة رومانية عبادة الإمبراطور نفسه كممارسة دينية وكمعتقد ساد في بعض الفترات الرومانية. فقد سادت ميثولوجيا أن الإمبراطورات المنحدرين من أصل يولياني (Julian) او القياصرة مثل يوليوس قيصر كانوا من نسل الإلهة (Venus) نفسها.

في يوم الهلاك المحتوم للمدينتين الجارتين، كان سكان المدينة مشغولين تماما بأعمالهم. فالحمامات العامة كانت تغص بروادها من الجنسين، وقد سادت في إحدى الفترات الحمامات المختلطة، ولكن تم فصلها لاحقا إما مكانيا أو بتوفير أوقات مختلفة لاستعمال الرجال والنساء كل على حده. واكتظت البارات العامة والمطاعم، وتدافع العامة لحضور مصارعات الموت مع الأسود، وكان الممثلون يراجعون أدوارهم في المسرحيات، وأعمال البلديات والمصالح العامة كانت تجري على قدم وساق. وكانت الطقوس الدينية دائرة وتدار أفرادا وجماعات. ودور الجون والمتعة والأفران والمحلات التجارية بالأسواق كلها كانت تغصّ بمرتاديها وتدور بها مختلف الفعاليات. وعلى أطراف المطاعم العامة المطلة على الطرق الرئيسية بالمدينة وضعت الطاولات الصغيرة في الظل ودارت الكؤوس وأطباق الطعام بجوار المياه الجارية بالنوافير. أما في المنازل والقصور فقد أعدت أطباق طعام الغداء الشهية، وفي أحد القصور المطلة على الميناء كان العبيد يوشكون أن يقدموا أطباق البيض المسلوق والخبز والسلطة والكعك والفاكهة. وفجأة وبدون إنذار، ارتجت الأرض تحت أرجل سكان المدينة، واسودت السماء وغابت الشمس وضياؤها وتحول النهار إلى ليل مظلم يهيم بفعل الغيوم السوداء الكثيفة مما قذفه البركان الثائر. وزاغت الأبصار وتدافعت الارجل في هلع لكل حدب وصوب هائمة على وجهها لا تدري أين المفر وأين سبيل النجاة من سيل أفعواني جارف من الحمم الملتهبة التي لم تلبث أن ابتلعت المدينة وسكانها حيثما اختبأوا ولم يكن من ملجأ أو مفر!

وفيما اتكأ أحدهم خارج كابينة الحمام الساخن في أحد حمامات المدينة العامة، تناهت إلى مسامعه صيحات فزعة تولول بانفجار البركان، لكنه لم يهتز له جفن أو يتحرك له ساكن وطمأن من حوله أن ذلك مجرد ألعاب نارية أطلقها أحد مزارعي البلدة المجاورة، وما هي إلا لحظات حتى تحول الحمام الذي يرقد فيه بعضهم إلى جحيم مشتعل، ووطئ بعضهم ظهر بعض وهم يتدافعون خارجين بحثا عن سبل النجاة. لكن الحمم كانت قد طوقت المدينتين ولم يعد هناك من سبيل للفرار أو النجاة من القدر المحتوم. استمر تدفق المطر اللاهب لعدة أيام تساقطت خلالها أسطح البيوت بفعل لظى النيران التي كانت السماء تصبها على المدينتين، وانتقل السكان المذعورون من عالي البيوت إلى سافلها حتى لم يبق هناك مكان لم تصله النيران فتحولت المدينة وجارتها إلى مقبرتين لسكانهما كل في مكانه وبأوضاع تصف آخر لحظات الصراع بين الحياة والموت.

وهذه اللحظات التي وصفها برنامج وثائقي عرضته قناة بي بي سي ونشر في كتاب (Pompeii: The Last Day)، إنما يعكس مظهرا من مظاهر آيات قرآنية كريمة عابت على أهل القرى (المدن الكبيرة) غيهم وغفلة قلوبهم. فقال الله تعالى في كتابه العزيز: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى 1 آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ والأرض ولكن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى 1 أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى 1 أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ 1 فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99)) ـ سورة الأعراف. فهل تكون للأمم اللاحقة عبرة وعظة من التاريخ – وبخاصة هذه الأمة الأخيرة التي نجاها الله تعالى من عذاب الاستئصال الذي عانته الأمم السابقة إكراما لخاتم أنبيائه؟ فالساعة آتية لا ريب فيها، وقد ظهرت بعض أشراطها، وتاليا مجموعات من الأحاديث النبوية في علاماتها: فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي (ص) قال:»لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين (لا ينفع نفسا إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل)». وروى الوادعي في الصحيح المسند حديثا حسنا عن أبي هريرة قول النبي (ص): «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كاحتراق السعفة، الخوصة». كما روى أبو سعيد الخدري حديثا صحيحا في الصحيح المسند للوادعي أن رسول الله (ص) قال: «لا تقوم الساعة حتى تمتلىء الأرض ظلما وعدوانا قال ثم يخرج رجل من عترتي، أو من أهل بيتي يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا». وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي (ص) قال:» لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه». وفي حديث صحيح أورده الألباني في صحيح الموارد عن أبي هريرة أن النبي (ص) قال:»يوشك أن لا تقوم الساعة؛ حتى يقبض العلم، وتظهر الفتن، ويكثر الكذب، ويتقارب الزمان، وتتقارب الأسواق». كما روى الألباني في صحيح الأدب المفرد حديثا صحيحا عن أبي هريرة أن النبي (ص) قال: «لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان». كما روى الألباني في صحيح الجامع عن أبي هريرة أن النبي (ص) قال:»لا تقوم الساعة حتى يكثر المال، ويفيض، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدا يقبلها منه. وحتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا». وها نحن اليوم نكاد نطالع علامات الساعة كالشمس في كبد السماء، فهل من عظة وعبرة لمن يعتبر؟

* معماري وباحث أكاديمي ـ لندن
sayedw03@yahoo.co.uk

تداعيات

امثولة مصطفى سعيد!

أمجد ناصر

■ كثيرون جاؤوا بعد الطيب صالح إلى المدينة التي يشطرها «التيمز» بمائه الموحل قسمين ولم تتحول «صدمتهم» بـ «الآخر»، أو صدامهم معه، إلى علامة فارقة في منجزهم الكتابي أو في حياتهم الشخصية. هو وحده، تقريبا، من التقط شقاء «الهوية» وصراعاتها مع ذاتها و»الآخر» وموضعهما في عمل صار علامة فارقة في المدونة الأدبية العربية وكتابات ما بعد الاستعمار.

أتحدث عن روايته «موسم الهجرة الى الشمال» التي لم يكن ممكناً له، أو لغيره، أن يكتبها لو لم يعش في لندن، خصوصاً، في أواخر أيام الامبراطورية وبدايات قيام «الدولة الوطنية» في العالم العربي على إيقاع الفكرة القومية. فأن تعرف الغرب في الشرق شيء وأن تكون داخله، في تلك الفترة بالتحديد، شيء آخر. من يعرف الطيب صالح، شخصيا، لا يتصور أنه هو، لا أحد غيره، كاتب تلك الرواية التي تضج بالصراع والتمزقات. لا تشبه سحنته السمحة ولا تروية في الحديث ولا المرح الذي يطبع شخصه ملامح شخصيته الروائية الشهيرة «مصطفى سعيد» بطل «موسم الهجرة الى الشمال»، رغم محاولات عدد من النقاد والفضوليين البحث عن نقاط تشابه بين الكاتب وصنيعه الروائي. كأن هناك فصاماً بين الكاتب وصنيعه. ذلك، كما أحسب، من طبع العمل الروائي ذي الحبكات «التقليدية» أو شبه التقليدية. بل لعله من دأب هذا النوع من التخييل. فالرواية، بهذا المعنى، قد تحمل ملامح سيرية ولكنها ليست سيرة ذاتية. قد تكون هناك أوجه شبه بين الكاتب وشخوصه ولكنهم لا يدلون، بالضرورة، عليه. هذا، في الأقل، ما نعرفه في أعمال كلاسيكية كبرى، رغم مقولة فلوبير الماكرة «مدام بوفاري هي أنا». فالطيب صالح شخص معتدل في الرأي والموقف وربما في الحياة فيما بطله الروائي «مصطفى سعيد» يضمر «عنفاً» يراه مشروعاً في علاقته مع «الآخر» الذي يتجلى هنا في المرأة. أو الجنس بوصفه «عملية افتضاض». شيء يشبه الاستعمار نفسه الذي هو افتضاض عنيف وهتك للأرض والثقافة والكرامة وفطرة الحرية وتصور الذات لنفسها. «جئتكم غازياً» هي عبارة «مصطفى سعيد». لكنه لا يقولها أمام «10 دوانتغ ستريت» وإنما أمام المرأة. يحب ويكره وينتقم ويعود إلى مسقط رأسه ليختفي تماماً. كأنه لم يكن. كأن صراعه لم يكون سوى انتقام سريع، هش، سجل في محضر «الجريمة» وليس في مدونة التحرر.

***

في الرواية العربية شخصيات روائية قليلة تحولت أعلاماً وصارت تختصر رؤى وتصورات ومواقف سياسية وايديولوجية ونفسية. أي تحولت إلى «نماذج». أذكر منها «أحمد عبد الجواد» بطل ثلاثية نجيب محفوظ و»مصطفى سعيد» للطيب صالح، و»متعب الهذال» لعبد الرحمن منيف. ربما هناك بضعة أسماء أخرى غير هؤلاء ولكن هذه هي الأسماء الأكثر دلالة على مرحلة أو فكرة أو موقف. ينفرد «مصطفى سعيد» بين هذه الشخصيات الروائية في انقذافه في لجة الصراع بين «الذات» و»الآخر». بين «الشمال» الغني، الأبيض، الاستعماري، وبين «الجنوب» الفقير، الداكن، الواقع بين براثن الاستعمار وتمثيلاته الماكرة.

إنه «المواجهة» العربية، أو لنقل العالمثالثية، الأولى مع «الآخر» ليس بوصفه «مخلتفا» ثقافياً ومتقدماً «حضارياً»، كما تعكسه دهشة الطهطاوي في باريس، أو لاحقاً في «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم (حيث يتعمق الاختلاف ولكنه يظل أفقياً)، وإنما بوصفه «عدواً». «الآخر» في رحلة الطهطاوي لا يتراءى عدواً ولا يبدو كذلك في «عصفور من الشرق» (حيث تلمع المفارقات ذات الطابع السلوكي والاخلاقي).

ليس صدفة أن يدرج ادوارد سعيد رواية الطيب صالح «موسم الهجرة الى الشمال» في تحليله للاستشراق، وليس صدفة أن تتحول تلك الرواية الى واحدة من «المواد» الأدبية في دراسات ما بعد الاستعمار التي واصلت اطروحة ادوارد سعيد في الدرس الجامعي الغربي ولا تزال تفعل. إنها رواية نموذجية على هذا الصعيد. ولعل تحول هذه الرواية الى «نموذج» واختصار الطيب صالح فيها، إن لم أقل سجنه في اطروحتها «الايديولوجية» والنفسية، قد جنت عليه.

فلم يتم الالتفات الى أعماله الأخرى التي كانت أقل «ايديولوجية» وتمثيلا لأطروحة ما، أعماله التي قدم فيها عالم القرية السودانية بما تنطوي عليه من حكايات وأساطير وطقوس وأنماط حياة في لغة مضمخة بالشعر والحنين. يبدو أن الطيب صالح الذي عاش طويلا وتنقل في أماكن شتى وامتلك قدرة فذة على السرد لم يستطع أن يكسر تلك القضبان الذهبية التي سجنه النقد الادبي العربي خلفها.

«الناس وأم كلثوم» للبهجوري: الرسم بآذان السماع!

ناظم السيد *

■ لم أكن أتوقع في زيارتي الأولى إلى القاهرة أن أشاهد معرضاً للصديق جورج بهجوري. بدا كل شيء مصادفة حين اصطحبت الشاعرة جيهان عمر في جولة عبر المدينة. انتقلت بي جيهان التي تحترف التصوير وتهوى الفن التشكيلي من غاليري إلى آخر حتى وصلنا إلى غاليري بيكاسو للفن في الزمالك. كان رد فعلي الأول حين شاهدت معرض بهجوري الضحك.

بهجوري يستحضر الضحك عندي. لا يتعلق الأمر بكونه رسّام كاريكاتور. أبداً. إنها مسألة شخصية. مسألة حب أكنّه لهذا الرجل الذي تعرّفت إليه في بيروت أثناء دعوته لتصوير حلقة تلفزيونية معه. التقيت الرجل السبعيني قبل تصوير الحلقة حين شاهدته ماراً في شارع الحمرا بحقيبته الجلدية الحمراء وكنزته التي صمّمها بنفسه راسماً عليها عين حورس، توقيعه الشهير أسفل كل لوحة له. وقتها تقدّمت منه وقلت له: أنا ناظم السيد. ثم دعوته إلى تناول القهوة مع بعض الأصدقاء. وحين حلّ الظلام أخذته إلى حانة «جدل بيزنطي» حيث كنا ننظم أمسيات شعرية. وهناك نصحته بشرب العرق البلدي الذي يشتهر به اللبنانيون. ظلّ بهجوري يشرب حتى سكر. وسكر بهجوري لذيذ هو الرجل الذي تخفف طوال حياته من الكلام الثقيل والمواقف الثقيلة. حين انتهت السهرة أوصلته إلى الفندق لنلتقي في اليوم التالي في المقهى حيث رسمني في لوحتين. كان بهجوري يرسم بسرعة فائقة من غير أن يرفع يده عن الورقة. هذه الطريقة، الرسم بخط واحد متواصل، عُرف بها بهجوري كتقنية وأسلوب ومعنى. لكن هذه التقنية بدأت بسبب آخر كما أخبرني. حين سافر إلى باريس عاش في فقر شأنه شأن غالبية المهاجرين. كان يقف في حي مونبارناس، وما إن يرى امرأة حتى يرسمها وهو يسير إلى جانبها في أقل من دقيقة. كانت هذه طريقته لبيع رسوماته قبل أن يغادر الزبائن المحتملون. أخبرني أن امرأة قالت له إن المرأة في اللوحة التي رسمها لا تشبهها. عندها استعان برد بيكاسو على امرأة: مع الوقت ستشبهك. بعد هذه السكرة صرت أتصل به إلى باريس من وقت إلى آخر. وفي كل مرة كانت المجيب الآلي يرد بصوته: أنا جورج بهجوري، أترك لي رسالة، خرجت أبحث عن النساء.

المعرض الذي قادتني المصادفة إليه حمل عنوان «الناس.. وأم كلثوم». لا أعرف في ما لو كانت أم كلثوم حية اليوم ورأت رسوماتها ستقول: هذه المرأة لا تشبهني. ليس المهم عند بهجوري أن تشبه اللوحة صاحبها. الأرجح أن الرجل يرسم انطباعه عن الأشخاص أكثر مما يرسم الأشخاص أنفسهم. إنه يأخذ تفصيلاً معيناً من الشخص ويضخّمه. يبني عليه. يرسم فكرته عن المادة المرسومة لا واقع هذه المادة. وقدرة بهجوري على رسم الانطباع مذهلة. يستطيع بضربة ريشة واحدة أن يشكل ملامح أي شخص. خط واحد أفقي أو طولي يخلق هذه الصلة مع الموضوع الذي يرسمه. الفن البهجوري هو فن الخط الواحد. الضربة الواحدة. فن الانطباع الأول في المشاهد والسريع في التنفيذ. هذا يذكر ببيكاسو الذي كان يرسم بتقنية «الزووم إن» الخاص بالكاميرا (تقريب العدسة). من يتأمل تضخيمات بيكاسو لجزء معين من الجسد قد ينتبه إلى أن فكرة هذه التضخيمات هي التصوير بطريقة الزووم إن (Zoom in) أو الكلوز أب (Close up).

أم كلثوم جورج بهجوري هي أم كلثوم جميع الناس. الفارق الوحيد أن بهجوري يرسم سيدة الغناء العربي كما يحسها الآخرون. إنه يرسم أم كلثوم بآذان الناس وليس بعيونهم. هذا الانطباع الذي يكوّنه الجميع عن أم كلثوم: صوت هائل. تبدو أم كلثوم في لوحات بهجوري عبارة عن صوت فقط. إنه يرسم امرأة على شكل صوت: رأس مرفوع ومحني قليلاً إلى الوراء، فم مفتوح دائماً، يدان تحملان منديلاً وتقتربان من منبع الصوت. نستطيع أن نتتبع صوت أم كلثوم في لوحات بهجوري من خلال أثر هذا الصوت. جسد المطربة المشدود إلى أقصاه. أجساد العازفين المشدودة إلى مصدر الصوت. أجساد الناس المائلة نحو الصوت كأنها أجساد متصوّفة في لحظة انخطاف ثم حلول. هكذا يغدو الصوت غير المرئي إلا من خلال أثره في الآخرين، يغدو هذا الصوت مركز اللوحة. أينما كان موقع أم كلثوم في اللوحة سواء في الوسط أم الطرف أم الأعلى أم الأسفل فإنها تشكل محوراً تدور من حوله عناصر اللوحة كلها. الأشخاص والآلات الموسيقية والألوان والحركات المختلفة كلها تتجه إلى أم كلثوم، إلى هذا الجسد الممتلئ بالصوت. في إحدى اللوحات بدا حشد من الناس بلباس أبيض مائل إلى جهة واحدة. بدا هؤلاء الناس المحنيون إلى أحذية كأنهم خارجون من صلاة جماعية، بدوا كأنهم يقدّسون أم كلثوم.

لا يستدعي الأمر رسم أناس خاشعين للدلالة على قدسية أم كلثوم كما رسمها بهجوري. السخاء في استخدام اللون الذهبي، لون الأيقونات البيزنطية والقبطية في طبيعة الحال، هو إحالة على هذا التقديس. استعمال الذهبي بكثرة في لوحات بهجوري يجعل من أم كلثوم أيقونة. نحن أمام لوحات تدعو إلى عبادة الصوت. على الأقل تقول هذه اللوحات بتنزيه هذا الصوت وإحالته على معنى غيبي. كأن صوت أم كلثوم ليس صوتاً بشرياً. إنه وحي يجمع الناس إليه. إنه الصوت الذي لا نسمعه فحسب، وإنما نشمّه ونلمسه ونتذوقه ونراه. إنه الصوت الميتافيزيقي الذي يتنكر بالحواس.

* شاعر وصحافي من لبنان